رحيل صاحب رباعية تاريخ القرن العشرين

إريك هوبزباوم شاهد على عصر مثير وحافل بالحروب

إريك هوبزباوم

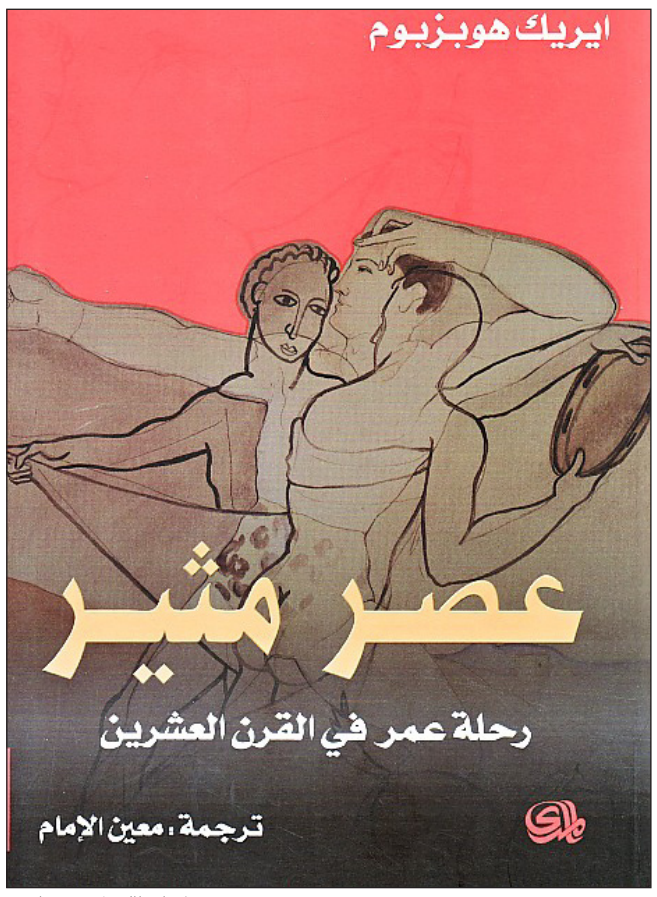

مذكراته االصادرة عن المدى

عن عمر ناهز الخامسة والتسعين توفي المؤرخ البريطاني الشهير إيريك هوبزيوم، أمس الأول، حسب بيان أصدرته عائلته.
وقالت ابنته جوليا إن والدها قد وافته المنية في الساعات الأولى من صباح الاثنين في مستشفى "رويال فري هوسبيتال" في العاصمة البريطانية لندن، حيث كان يتلقى العلاج نتيجة مرض ذات الرئة.

المدى الثقافي

يذكر أن هوبزباوم، وهو مؤرخ ماركسي، ألف أكثر من ٣٠ كتابا، إلا أنه اكتسب شهرته من مجموعة أعمال كتبها وهي سلسلة عن تاريخ القرن العشرين "عصر الثورة" التي ترجمت إلى ٤٠ لغة.

وقالت عائلته "لن تفتقده زوجته مارلين ذات الخمسين عاما وأبناؤه وأحفاده فحسب، بل سيفتقده أيضا الآلاف من قرائه وطلابه حول العالم".

ولد هوبزباوم لأبوين يهوديين في مصر عام ١٩١٧، وهو العام الذي قامت به الثورة البلشفية، وغلب على حياته وأعماله التزامه بالاشتراكية المتطرفة.

وانتقل والده البريطاني ووالدته النمساوية إلى فيينا عندما كان عمره عامين، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى برلين.

وفي الرابعة عشرة من عمره وبعد فقده والديه، انضم هوبزباوم للحزب الشيوعي وانتقل للعيش مع عمه.

وكان هوبزباوم وهو في الثمانين من عمره يحكي عن نفسه قائلا: "إن أي شخص رأى صعود هتلر أمام عينيه يجب أن يكون قد تأثر سياسيا بذلك. ولا يزال ذلك الصبي بداخلي وسيظل".

وانتقل هوبزباوم إلى لندن عام ١٩٣٣، في الوقت الذي أحكم فيه هتلر قبضته على السلطة.

وبعد أن حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كمبريدج، أصدر كتابه الأول عام ١٩٤٨.

وعين هوبزباوم محاضرا بكلية بيربيك في لندن عام ١٩٤٧، ليمضي حياته المهنية كلها في الكلية ويجري تعيينه رئيسا لها في ما بعد.

وتعد من أشهر أعماله سلسلته ذات الأجزاء الثلاثة عن تاريخ القرن العشرين، وكتابه "عصر الثورة" الذي يتحدث فيه عن العقود الثمانية منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى، حتى سقوط الشيوعية في أوروبا.

ولم يتوقف هوبزباوم عن الكتابة حتى قبل وفاته بقليل، فأصدر هوبزباوم العام الماضي وهو في سن الرابعة والتسعين كتاب "كيف تغير العالم" عام ٢٠١١، وهو دفاع عن الماركسية التي اعتبر أنها ما زالت وثيقة الصلة بعصرنا خاصة بعد الأزمة المالية العالمية وانهيار البنوك الكبرى في أوروبا والولايات المتحدة، وهو ما عده علائم فشل للرأسمالية. .

ويقول هوبزباوم إنه عاش في ما يعتقد أنه "أفضل القرون وأسوأها في آن معا في تاريخ الإنسانية".

ومع كونه ماركسيا متمسكا بمبادئه، إلا أنه اعترف بإخفاق الشيوعية في القرن العشرين. ومع ذلك، لم يتخل عن مبادئ الماركسية.

وقال زعيم حزب العمال البريطاني إيد ميليباند" إن هوبزباوم "كان مؤرخا عظيما، ومتحمسا لنظرياته السياسية، وصديقا رائعا لعائلته".

وأضاف قائلا: "لقد أرخ في كتبه لمئات السنوات من تاريخ بريطانيا، لتكون متاحة لمئات الآلاف من القراء. لقد نجح في إخراج التاريخ من برجه العاجي ليكون موجودا بين الناس".

وأضاف ميليباند: "إلا أن هوبزباوم لم يكن رجلا أكاديميا فحسب، بل كان يركز اهتمامه الشديد على الاتجاهات السياسية في الدولة. وكان من الأوائل الذين اعترفوا أن هناك تحديات تواجه حزب العمال في أواخر السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، بعد ما طرأ على طبيعة مجتمعنا من تغيير".

وقد وصفه المؤرخ "ديفيد كوت" David Caute في ٢٠٠٢، بأنه ربما كان "أعظم مؤرّخ على قيد الحياة.. لا في بريطانيا وحدها، بل في العالم". وفي عام ٢٠٠٣ مُنح جائزة بالزان Balzan للتاريخ الأوروبي منذ عام ١٩٠٠، لا سيما "على تحليله الرائع للتاريخ المؤلم لأوروبا في القرن العشرين، وقدرته على المزاوجة بين عمق البحث التاريخي والموهبة الأدبية الكبرى".

في حوار مثير معه يصف هوبزباوم العصر الحديث بقوله : عند أحد المنعطفات في سبعينيات القرن العشرين وقع انقلاب حاد بين الماضي والحاضر، في سجال جمعني مع لورنس ستون في ١٩٧٩ . ١٩٨٠ حول (صحوة السرد)، تساءلتُ :"ما الذي يجري مع أسئلة لماذا الكبرى؟". ومنذ ذلك التاريخ تعرضت الأسئلة التحويلية الكبيرة عموماً للنسيان من قبل المؤرخين. وفي الوقت نفسه كان ثمة توسيع كبير لمدى التاريخ . بتنا قادرين على الكتابة عن كل شيء يخطر ببالنا: عن الأشياء، العواطف، الممارسات. بعض هذا كان مثيراً، غير أن زيادة هائلة كانت قد حصلت فيما يمكنك أن تطلق عليه تاريخ المعجبين والهواة، ذلك التاريخ الذي تدوِّنه الجماعات لمجرد أن تشعر بالرضا عن نفسها. كان المقصد تافهاً؛ أما النتائج فلم تكن دائماً كذلك. فقبل بضعة أيام لاحظت مجلة تاريخ عمالي جديد فيها مقالة عن الزنوج في ويلز خلال القرن الثامن عشر. ومهما كانت أهمية الأمر بالنسبة إلى الزنوج في ويلز، فإنه ليس بحد ذاته موضوعاً استثنائي المركزية. لعل الأشد خطراً في الحدث هو، بالطبع، صعود الخرافة (الميثولوجيا) القومية، أحد إفرازات مضاعفة عدد الدول الجديدة، التي تعين عليها أن تجترح تواريخها القومية . الوطنية. يتمثل عنصر وازن في هذا بشروع الناس في قول: لسنا مهتمين بما حصل، بل بما يُشعرنا بالرضا والراحة. والمثال الكلاسيكي لذلك هو سكان أميركا الأصليون الذين دأبوا على رفض فكرة أن أسلافهم كانوا قد هاجروا من آسيا، وأصروا على قول: 'لقد كنا هنا دائماً'.

في مقدمة كتابه (عصر مثير) الصادر عن دار المدى يكتب : " تعتبر السيرة الذاتية للمؤرخ (رجلا كان أم امرأة) جزءا هاما من بنية عمله. والى جانب الإيمان بالعقل والفارق المميز بين الحقيقة والخيال، فان الوعي بالذات، أي الوقوف داخل الجسد وخارجه، يعتبر مهارة ضرورية للمشاركين في اللعبة في التاريخ والعلوم الاجتماعية كليهما، خصوصا بالنسبة لمؤرخ، مثلي، اختار موضوعاته بشكل غريزي واتفاقي، لكن انتهى به الأمر إلى جمعها معا في شكل متلاحم ومتسق. قد يركز مؤرخون آخرون في اهتماماتهم على الجوانب الأكثر حرفية من كتابي. لكن آمل أن يقرأ غيرهم الكتاب كمدخل تمهيدي لأكثر القرون الاستثنائية روعة وفرادة في تاريخ الجنس البشري من خلال رحلة إنسان واحد لا يمكن لحياته أن تحدث في أي قرن آخر.

مذكراته الصادرة عن المدى

منطقة محررة

▪ نجم والي

عن النعمة هذه التي اسمها الديمقراطية

على الصعيد السياسي نحن سعداء أن أحد الأمور التي أصبحت طبيعية هو أن المرء يجوز له التعبير عن رأيه بحرية. على الأقل على المستوى النظري، لأن حرية التعبير هي حق مكفول في الدستور العراقي الجديد. ومن عاش الديكتاتورية والمطاردات والسجون والتعذيب والمنافي بسبب رأيه يعرف ماذا يعني الحصول على هذا الحق، مثلما يعرف، أن الحق المكتسب الجديد هو حقٍ إنساني عام، صحيح أننا لم نحصل عليه إلا بعد ٩ أبريل ٢٠٠٣، لكن شعوباً أخرى سبقتنا بالتمتع به وعلينا على الأقل أخذ بعض الدروس منها. حرية الكلام هي خلاصة جوهر الديمقراطية. السكوت والتسليم للأمر الواقع والخنوع، هي علامات بالتنازل عن هذه الديمقراطية، إذا لا تعني في النهاية القبول بالديكتاتورية من غير المهم ما تحمله من كوارث وأهوال.

في حوار معها منشور في مجلة شبيغيل الألمانية الأسبوعية قبل أيام بمناسبة صدور ديوان شعري جديد لها "الأب يتهاتف مع الذباب" ، (وهو أول كتاب لها بعد حصولها على النوبل)، لا تخفي الروائية الرومانية الألمانية الأصل استنكارها للتراجع الحاصل في بلدان أوروبا الشرقية في الفترة الأخيرة، في رومانيا وروسيا وأوكرانيا وهنغاريا على وجه الخصوص، إذ بالذات هذه البلدان التي كان من الممكن لها أن تتطور باتجاه الديمقراطية بعد التحول الذي حدث لها إثر انهيار النظام الشيوعي، تدخل الآن مرحلة التنازل عن هذه النعمة، نعمة الديمقراطية.

المؤلم بالنسبة لمولر هو أن الأمور تعود إلى الوراء وكأن تحولاً لم يحدث في تلك البلدان، كأن العشرين عاما التي مرت، مرت هباء، وفي بحثها عن تفسير لما يحدث هناك خاصة في بلدها السابق رومانيا، بالنسبة لها، أن الحزب الحاكم في رومانيا والذي يُسمى بالحزب الاشتراكي الديمقراطي هو بقايا الحزب الشيوعي القديم الذي يعمل كل ما في وسعه الآن لحماية الرعيل القديم، ولتحقيق ذلك يتم التجاوز على دولة القانون، والاستحواذ على جميع المؤسسات المهمة عن طريق تعيين أعضاء الحزب على ترأس قيادتها. عجلة الزمن تُرجع إلى الوراء. حزب واحد يقرر كل شيء، تصفية المعارضين باسم الديمقراطية، ومن أجل ذلك لا يهم تزوير الانتخابات أو التهديد بإقالة قضاة المحكمة الدستورية. طبعاً الكارثة هي أن الذين يجلسون على رأس الحكومات بعضهم في عمر الشباب. الهنغاري فيكتور أوربان والروماني فيكتور بونتا لم يتجاوزا العقد الرابع من العمر. فيكتور بونتا عمره ٣٩ عاما. وإذا عرفنا أن الشباب هؤلاء تربوا على يد ديكتاتوريات من نمط ديكتاتورية تشاوشيكو، لن نستغرب ما يحصل من تطور مخيف. وقاحة هؤلاء وصلت إلى حد تزوير الشهادات الأكاديمية التي يدعون حصولهم عليها. الاثنان مثلاً يحملان لقب دكتور رغم أن الجميع يعرف أنهما لم ينهيا دراستهما الجامعية!

لكن أليس ذلك ما يحصل عندنا أيضاً؟ لا أقصد طبعاً حملة لقب الدكتور الذي حصل عليه العشرات من سياسيين وأعضاء برلمان ومدراء عامين، من سوق مريدي والعورة، من سوق جمالة والكيارة وغيرها من الأسواق، والذين رغم معرفة القاصي والداني بأن حملهم للقب هذا هو دمغة الكذب الأولى على سيماء وجوههم، بل أقصد ما يحدث من تنازل تدريجي عندنا على هذه النعمة: نعمة الديمقراطية، وخاصة في أوساط المثقفين، فمن غيرهم يعرف ماذا تعني: حرية التعبير؟ وما تشكو منه صاحبة النوبل في ما يتعلق بالسلوك المنافق لبعض مثقفي بلادها شبيه أيضاً لما يحدث عندنا. أليس من المؤلم أن نقرأ من حين لآخر حواراً مع مثقف بعثي سابق لا يتطرق فيه هو ولا محاوره إلى ماضيه، كما حدث قبل أسابيع في حوار منشور في أحد ملاحق جريدة المدى مع شاعر بعثي سابقاً وبامتياز، شاعراً كان رئيس إتحاد وطني لطلاب جامعته، وطبيباً في دواجن عدي صدام، شاعراً يتحدث عن الأساطير وما بعد الحداثة والنساء دون أن يتطرق لا هو ولا محاوره بكلمة واحدة إلى ماضيه وكيف أن مجلة ألف باء البعثية قدمته هو وثلاثة من جيله في بدايات السبعينيات بصفتهم شعراء الحزب والثورة الرسميين؟

أن يزوّر برلمانيون شهاداتهم الجامعية ويحصلون على ألقاب الدكتوراه ولم يكمل بعضهم الدراسة الابتدائية، أن يسرق سياسيون ومدراء عامون من خزينة الدولة ليل نهار، أن يتصرف من يدعي حماية القانون بخرق القانون، أن يتبوأ بعثيون سابقون مناصب مهمة ويتكلمون في القنوات الفضائية والصحافة بأعلى الأصوات، كل تلك هي أمور ممكنة الحدوث في كل الديمقراطيات الفتية الناشئة، لكن الوقوف في وجهها وفضحها والتصدي لها هو المهم، إذ فقط بهذا الشكل، نستطيع الحفاظ على النعمة الجديدة: نعمة الديمقراطية. اليأس والسكوت عن الكذب، الخنوع والتنازل عن كل معارضة ستعود في البلاد عقوداً إلى الوراء، كوارث وقتل وتشرد وسجون وحروب، هذه المرة باسم الديمقراطية وحماية القانون!

صدر عن (المدى)

الملك لير بترجمة صلاح نيازي

صدرت ببيروت عن مؤسسة دار المدى، ترجمة جديدة لمسرحية الملك لير، إحدى روائع شيكسبير الكبرى. أنجز هذه الترجمة الشاعر العراقي المغترب صلاح نيازي الذي حقق هذه النسخة مقارنة مع مختلف الطبعات الإنكليزية، كما زوّدها بشروح ضرورية، مشيراً في الوقت نفسه، إلى التقنيات التي يتوسلها شيكسبير لجعل صوره أكثر حدّة وإقناعاً. من الجدير بالذكر، أن د. نيازي ترجم من قبل، عملين لشيكسبير هما مسرحية مكبث وهاملت. هذا إضافة إلى ترجمته لمسرحية "ابن المستر ونزلو" لترنس راتيكان، و"العاصمة القديمة" لكاواباتا، وخمسة عشر فصلاً من "يوليسيس" لجيمس جويس.

مراجعات

قراءة في كتاب د. حياة الخياري: "أضف نوناً "

وجد الحرف عند الصوفي الأخير أديب كمال الدين

صباح محسن كاظم

الشاعر أديب كمال الدين

من نافلة القول، أن التجربة الثرة للحروفي المبدع أديب كمال الدين تحتاج إلى كثير من الفحص، والتحليل والرصد، والمتابعة والتأويل. فثمّة نكهة للحرف، وقدسية للوصل، والمعنى، والجوهر، والهيام، والقسم، والعلامة، والرمزية في الإنشاء والتكوين، والمعرفة، والسيمياء، والدلالة والانزياح في نصوصه. فحروفه غير مستنسخة من مفردات شاعر آخر، وثياب تلك الحروفيات ليست مستعارة من خزائن أخرى.

إن تجربته الناضجة الضاجّة بالحروف الاحتجاجية أو الوصفية (القدسية) في نصوصه عن الرموز المقدسة تفصح عن قدرة فائقة في الإدهاش، فالصوفي المائز كمال الدين، ونحن نتسلق المراق الكمالية بشدوه لعقود خلت منذ ديوانه البكر: (تفاصيل) ١٩٧٦ إلى نتاجه: (أقول الحرف وأعني أصابعي)٢٠١١ ثم إلى (مواقف الألف) ٢٠١٢ (منشورات الدار العربية للعلوم ناشرون)، في هذه الرحلة الشعرية المكتظّة بالثراء الشعري البهي المؤطّر بنسق عرفاني صوفي يعانق الروح ويعرج بها نحو السمو في أربعين نصاً إبداعياً جسّد ذلك بديوانه (أقول الحرف وأعني أصبعي).

من نصّه الأول (ثمّة خطأ) نقرأ:

ثمّة خطأ في السرير
وفي الطائر الذي حلّقَ فوق السرير
وفي القصيدة التي كُتِبَتْ
لتصفَ مباهجَ السرير
وفي المفاجأة التي تنتظرُ السرير
في آخر المطاف.

يقول ابن عربي: ٢ (الإرادة أثر وجهي، وخبر ذاتي، إذا اهتاجت في القلب، تسلب القرار من العبد، وتسوّد وجه الحظوظ النفسانية بالسحاب والرعد، وتسوق العبد إلى مطالعة جد الله في مواجيد الحد، لا جرم يفارق الفراش، ويلازم الانكماش، ويعالج الأخلاق، ويمارس المشاق، ويعانق الأهوال، ويفارق الأشكال).

تحيلنا نصوص الشاعر إلى الانسجام الإيقاعي بالوجد الروحي نحو الكمالات، والاندغام بلغته العالية، بفيض اللغة والمفارقة والمشاكسة وهو يهزأ بما يصيب الوجود الإنساني إزاء المأساة والأسى ومرارات الانكسارات والغربة التي يُصاب بها من العسف السياسي والحروب وغلبة الظلم وإهدار الكرامة بأبشع الصور المؤذية في الإنسانية. ويتجلى التأمل والتجريد في أسئلة الشعر الصوفي المحلّق بالروح، يتجلّى في الإعجاز اللغوي للوصول إلى المعنى.

لقد فحص تجربة الشاعر أديب كمال الدين عشرات النقاد والأدباء، وتميّزت دراسة د. حياة الخياري بالغوص لاستخراج تلك اللآلئ والجواهر في عمق المعنى وسبر أغوار تلك النصوص الحروفية الصوفية المتعالية في كتابها الجميل الذي حاولت فيه بجدّية وجهد فتحَ كشوفات بحروفايته، وفك رموزه، وشفراته، وإلقاء حزمة من الضوء على – حروفياته - مرادها وإحالاتها ومدلولاتها. وقد برعت في مؤلفها الشيّق: "أضف نوناً: قراءة في "نون" أديب كمال الدين"٣ الصادر مؤخراً عن الدار العربية للعلوم ناشرون.

ومن ثريا العنوان، أضف نوناً، فعل الأمر؛ تصطحبنا المؤلفة برحلة سياحة جمالية بلاغية ثقافية تتعشق في الوجدان العربي لقدسية الحرف، وما ورد من قسم به بالقرآن الكريم، ولغتنا الجمالية ببلاغتها وتأويلها ومنظومتها المعرفية وجزالة ملفوظاتها وسحر معانيها ودلالاتها وانزياحاتها مع تناصّها تثير الشهوة بالحرف وقيمته المقدسة. تذكر د. حياة الخياري في ص١٣ من مؤلفها القيّم (... فإنّ الشعراء الحروفيين يجترحون تعريفاً للحرف من أعماق ذواتهم، منبّهين منذ البداية إلى أنّ الشعر إنما يخوض تجربة في "ذوتنة الحرف")

لا ريب أن التصوف هو البحث في النقاء ، للتخلص من أدران الخطيئة التي يبحث عنها المريد والعارف. وفي الرحلة الشعرية لكمال الدين نجد السير باتجاه شمس الحرية والانعتاق من الأغلال والأصفاد التي تعكر صفو النفس الإنسانية للتهذيب، والانطلاق نحو الوجد والعشق الإلهي والذوبان بإخلاص إلى القيّم الساميّة والرؤية الإشراقية للنفس البشرية.

وفي ص١٧ تذكر الخياري" :تبدأ النّون رحلتها بوجودها في حقل دلالي تكتنفه ملابسات معرفيّة تنهل من معين صوفيّ، ولا تنأى عمّا حفّ بالأساطير من زخم رمزيّ يستشرف الخلود، مما يدعونا إلى تبيّن وضع نقطة النّون من دائرتيّ الفلك والفُلك فصلا ووصلا". ثم تعّرج د. حياة في بحثها المعرفي والجمالي العميق لتستطرد برحلتها مع الحرف لأديب كمال الدين، وتمر برحلتها الكشفية والتفصيل بالتناص مع الحروف المقطعة في رؤوس بعض السور القرآنية، ص٣٠ "إن اللّغويين، شأنهم شأن المفسرين، قادهم نظرهم إلى الرّبط بين سيمياء حرف النّون وسيمياء الأسماء الدّائرة في فضائه القرآني، وأهمّها اسم النّبيّ يونس الذي التقمه الحوت فكنّى عنه الله بذي النّون، "...

وقال: الغُربةُ غُربة الليل
أسلخُ منه النهار.
ثُمَّ غُربة النهار
لولا الشمس
وهي تجري لمُستقرٍ لها.
ثُمَّ غُربة النجوم
لولا مواقع النجوم.
ثُمَّ غُربة نُوح والفُلْك المَشحون
ثُمَّ غُربة صالح في ثَمود
وغُربة موسى وعيسى.
وقبلهما غُربة يوسف ويعقوب
ثُمَّ غُربة مَن أرسلتُه رحمةً للعالمين

يوظف الشاعر التكرار لعبارة "غربة" حتى يعدد تجلّياتها المخزّنة في الذاكرة. غير أنّ ما يعنينا هو ذاك التّقاطع بين الغربة الوجوديّة في بعدها الزّمنيّ وغربة الأنبياء في بعدها الإنساني، لذة الكتابة ولذة الخطاب ونشوتهما بالتوحد مع قيم الجمال والروح والفكر والوعي والتطلع لتقديم المتعة البصرية، فضلاً عن التفاعل الروحي مع المتلقي، فالشاعر مُعبر عن الوجود بأسره وحسب إمكاناته وأدواته وقدرته من خلق الإدهاش وتطويع الحروف.

فصول ونصوص وقراءات رائعة قدمتها المؤلفة في هذا السفر الجميل .لقد أبحرت د. حياة الخياري بدراستها تلك لتطعمنا فاكهةً شهية لا تمل ويتجدد طعمها كلما تفحصنا كتابها.

–١ موقف الألف – أديب كمال الدين– الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت ٢٠١١.
–٢ رسائل ابن عربي– تحقيق قاسم محمد عباس– دار المدى.
– ٣أضف نوناً: قراءة في "نون" أديب كمال الدين– د. حياة الخياري– الدار العربية للعلوم ناشرون– بيروت ٢٠١٢.